فضل عشر ذي الحجة

في ضوء سورة الفجر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

أُلقي عام ١٤٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّوجلَّ-، فما ظهرلكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهرلكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفرالله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدا كثيرا طيبا مباركا ونسأله بمنه وكرمه في هذه الأيام الفاضلة أن يتقبلنا وأن يعيننا على الأعمال الصالحة ويتقبلها منا ويغفر لنا التقصير في حقه سبحانه وتعالى وهو العليم الخبير بضعفنا ونقصنا وحبنا وإقبالنا عليه ورغبتنا ورهبتنا، نسأله بمنه وكرمه أن يجعل هذه الأيام المباركات زاد لنا لنلقاه وهو عنا راض اللهم آمين.

سنقف وقفات مع سورة عظيمة بينت فضل هذه الليالي العشر. بينت فضل هذه الأيام المباركات. وهذه السورة وهي سورة الفجر التي ابتدأت بالقسم. لو نظرت لها على وجه الإجمال. سترين عجبا من **تطمين المؤمن ومن ترغيبه فيما عند الله وفي تقليل الدنيا وفي جعل الدنيا زادا للآخرة.**

نسأل الله أن يبارك لنا في اللقاء وأن نستطيع أن نصل إلى هذا المعنى بوضوح في هذه الدقائق. نحتسب هذه الدقائق على رب العالمين. يا رب أعنا وتقبل منا.

هذه السورة كما تعلمون هي سورة مكية، آياتها من الآيات القصار. وهي تدور حول معنى عظيم سيتبين بإذن الله من خلال ربط انتقالات السورة التي انتقلتها يتبين من خلالها هذا المعنى العظيم الذي أراد الله عز وجل أن يصل إلى أفئدتنا.

كما هو واضح أن السورة بدأت بواو القسم {وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ} أقسم سبحانه وتعالى بالفجر. وأقسم سبحانه وتعالى بالليالي العشر.

{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} وأقسم بالشفع والوتر وأقسم بالليل سبحانه وتعالى.

{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} أشار إلى هذه الإقسامات وكيف أن من كان له حِجْر يعني له عقل يجب أن يفكر في هذه الإقسامات ويصل من خلال هذه الإقسامات الى المعنى العظيم الذي يراد لنا أن نتشرّبه ويبقى في فؤادنا.

المفسرين في هذه الإقسامات لهم أقوال والسبب في تعدد أقوالهم أنّ هذه الإقسامات تأتي مبهمة فيدخل فيها شؤون كثيرة.

الفجر هو وقت انفجار النهار من ظلمة الليل وهذا من أحد أدلة عظمة رب العالمين. والفجر فيه صلاة الفجر {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} صلاة عظيمة تشهدها الملائكة.

وأيضا هناك قول أخص فقيل: أن هذه صلاة الفجر في يوم النحر بدليل {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} فمعنى ذلك أن الله عز وجل أقسم سبحانه وتعالى بالفجر ذاك الوقت العظيم الذي يظهر فيه عظمة رب العالمين وذاك الوقت العظيم الذي تحضر الملائكة صلاة المصلين، وذاك الوقت العظيم على وجه الخصوصية وهو يوم النحر اليوم العظيم يوم عيد المسلمين في أعظم أيام الدنيا.

هذا اليوم الذي كان موعد موسى عليه السلام، فقد ذكر أهل العلم أن الله قد واعد موسى ثلاثين ليلة وهذه الثلاثين ليلة كانت من شهر ذي القعدة. ثم أنه سبحانه وتعالى أتمّها بعشر. فكان العشر هي هذه عشر ذي الحجة وكان اليوم العاشر هو الذي كان فيه المواعدة وحصل هذا الشأن العظيم من كون موسى عليه السلام قد زكّى نفسه وطهرها وذكر الله كثيرا في تلك الأيام حتى بلغ منه الشوق أن طلب من رب العالمين أن يراه كما في الحادثة المشهورة ثم

تلطف به رب العالمين وبين له أن هذا الأمر لا يكون في الدنيا، لكن يكون لما يلقى المؤمنين رب العالمين نسأل الله من فضله.

فإذًا هذا أول الكلام عن فضل عشر ذي الحجة أن هذا الفجر **فجر مخصوص وهو فجر اليوم العاشر**، ومن ثم قالوا {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} هي عشر ذي الحجة، فأشير إلى موسم عظيم من مواسم الطاعة، يعني أقسم عز وجل بهذا الموسم العظيم والله العظيم ما يقسم على أمر إلا ليعظم في قلب الإنسان، فالفجر لا بد أن يكون في قلوبنا عظيم صلاة الفجر والإطالة والشعور بأن الملائكة تشهدها وخاصة فجر يوم النحر.

وهذه الليالي العشر التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من أيّامٍ العمَلُ الصالحُ فيها أحَبُّ إلى اللهِ من هذه الأيّامِ العَشْرِ». الله أقسم بهذه الليالي لكي تصبح في نفوسنا غاية في العظمة. فما نضيعها في أي أمر.

وقد أقسم الله عز وجل بهذا الزمان من أجل أن يعظم في داخلنا هذا الزمان، فنغتنمه من أجل أن نتقرب من رب العالمين.

وأقسم عز وجل بالشفع والوتر والمقصود بها كما أشار المفسرين أيضا أن لها صلة بهذه الأيام، فقالوا الشفع هو يوم العاشر والوتر هو يوم التاسع. فخُصص مرة أخرى يوم العاشر وهو أعظم الأيام ويوم التاسع أيضا خصص بهذا القول بأنه من أيام هذه العشر.

هذه الإقسامات بهذه الصورة تكون متسقة بعضها مع بعض دلالة على أهمية هذه الأيام وعلى عظمتها عند رب العالمين.

إلى أن نصل إلى الليل، {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}: إذا مضى، وهو وقت للنزول الالهي. وليل المؤمن مختلف تمام الاختلاف عن ليل غيرهم من البطالين التاركين لوظيفتهم في هذه الحياة.

فبهذا تكون هذه الإقسامات كلها تدور حول ما خصّ الله به هذه الأيام وكيف أن هذه الأيام عظيمة اشتغل فيها بتعظيم العالمين وبتكبيره وبالانشغال برضاه عن كل شيء وأي حاجة لك في الدنيا أي حاجة من صلاح أبناء من سعة رزق في الدنيا أو أي حاجة متصلة في الآخرة من زيادة إيمان وحفظ القرآن وفتح أبواب الجنان وحسن الخاتمة كل مطالبك اجمعها وكبر الله وعظمه واعترف بعجزك واعترف بضعفك وكبّر رب العالمين، يقضي لك الله كل الشئون..

إن كان مريضا يشفيه الله -أسأل الله عز وجل أن يشفي مرضانا ومرضى المسلمين-

وإن كان دين يقضيه -أسأل الله عز وجل أن يقضي عنا جميعا الديون-

وإن كان ما كان فربّ العالمين أكبر من كل الهموم وهو على كل شيء قدير.

فبهذا تكون هذه الإقسامات ذكر فيها الأزمنة التي يستحب فيها فعل الطاعات ويأنس لها المؤمن وينتظرها بشوق كل عام حتى يبذل في هذه الأوقات الطاعات ليرضي الله عز وجل وليرضى الله عز وجل عنه فهذا معنى، و بهذا تستقيم الآيات.

وأيضا يمكن أن يكون المعنى: أن هذه الإقسامات {وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ} إنما هي الأوقات التي أهلك فيها الله الطغاة.

فيمكن أن يكون الفجر هو فجر عاشوراء، الفجر الذي أهلك الله فيه فرعون يوم عاشوراء.

وليال عشر أيضا قد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الليالي كانت هي الليالي السابقة لإهلاك فرعون.

وقالوا أن الشفع والوتر أن المقصود بها سبع ليالي وثمانية أيام. السبعة اللي هي الوتر والثمانية هي الشفع. وهذه الذي أهلك الله عز وجل بها عاد {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}

فالمقصود أن هذه {وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}. هذه الاوقات التي اهلك الله فيها الظالمين {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} ففي موقف لوط لما سرى الليل أتى الهلاك على قومه، فإذًا هذا معنى آخر، أن هذه الأزمنة التي أهلك الله فيها عز وجل الظالمين،

وهناك قول آخر وهو أن هذه الإقسامات تظهر قدرة الله على المداولة بين الليل والنهار والمداولة بين الأزمنة، وجعْلُ أزمنة أعظم من أزمنة لأنه هو سبحانه وتعالى الحكيم يخلق ما يشاء ويختار، فأزمنة يجعلها للهلاك وأزمنة يجعلها فاضلات يجعلها مكان للعبادات فيكون هذا المعنى الثالث جامع للإثنين، أنه هذه الإقسامات العظيمة بالفجر والليالي العشر والشفع و الوتر والليل كلها دالة على عظمة الله عز وجل وأنه يخلق ما يشاء و يختار ما يشاء و يفضل أيام على أيام و يجعل بعض الأيام نصرة لأهل الإيمان و إهلاك لأهل الكفر ومن ثم تكون هذه الأيام مكانا للطاعات و العبادات.

وأنه سبحانه وتعالى جعل هذه الأوقات هي زاد المؤمن يستزيد بها.

فالحظوا الفجر في أول القسم و الحظوا اليل في آخر القسم وكيف أن هذه هي الأوقات التي يسري بها المؤمن لفعل الطاعات، الحظوا كيف أن هذه الأوقات فاضلات عند رب العالمين، ثم الحظوا الليالي العشر كيف أنها أزمنة مشرّفة سواء كان القول بأنها الأوائل من ذي الحجة أو العشر الأواخر من رمضان في النهاية فليُعلم أن **المؤمن يطمئن بطاعة الله ويتنقل من زمن إلى زمن في طاعة الله**. ويعتني بالزمن لأجل طاعة الله. ويرى أن الزمن هو الذي يوصله هو الذي فيه في داخله يقوم بالأعمال.

فلنجعل هذه العشر زادا لنا من كل العام، ووقت نتفرغ فيه لطاعته .

ونجعل الفجر فجرا مشهودا، فنحفظ من الآيات لكي نقوم بها في الفجر فتشهد الملائكة.

ولنجعل ليلنا ليلا مشهودا نعيشه رغبة فيما عند الله نقومه رغبة فيما عند الله. وهكذا أهل الإيمان شتاؤهم ربيع لهم، كما في الآثار وإن كان فيها ضعف، لكن المؤمنين ينظرون للشتاء بطريقة مختلفة ينظرون للصيف بطريقة مختلفة ينظرون للنهار بطريقة مختلفة، ينظرون لليل بطريقة مختلفة. كل شيء عندهم مختلف، فهذه الأزمنة بالنسبة للمؤمن زاد يطمئن به هذه الأوقات بالنسبة للمؤمن زاد.

الانتقالة الأولى:

نفاجأ بانتقالة في السورة، لكن هي في الحقيقة ليست مفاجئة لمن عرف الفرق الكبير بين أهل الايمان وأهل الكفران.

{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} الذي عنده عقل سيرى أن هذه الإقسامات التي أقسم الله بها عظيمة جدا فيها دلالة على عجائب قدرة الله.

والحجر كما مر معنا العقل لأنه يحْجُر صاحبه، يعني يمنعه من أن يرتكب ما لا ينبغي.

في مقابل هذا الذي عنده عقل سينتفع بالأيام والليالي، وسيطمئن في داخلها بذكر الله، وسيكون تركيزه على الانتفاع بها.

الانتقالة الثانية:

ثم ننتقل انتقالة بعيدة عن قوم آخرين، هؤلاء القوم الآخرين جعلوا أوقاتهم كلها معمرة لأجل الدنيا. وأصبحت بالنسبة لهم الطمأنينة للأسباب، وأصبح العمر مجرد تحصيل للدنيا، فيقال لهؤلاء الذين فعلوا هذه الأفعال.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} يعني ألم تعلم علما يقينيا كيف فعل الله بعاد يعني كيف عذّبها؟ لأن هؤلاء هم الذين بعث الله فيهم رسولهم هودا عليه السلام فكذبوه فاهلكهم بريح صرصر عاتية ولذلك هي التي أشار بعض المفسرين أنها هي الشفع والوتر.

{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} يعني هؤلاء ماذا كانت طريقتهم؟ التي لم يخلق مثلها في البلاد؟ يعني كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولذلك قال الله عز وجل {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} سبحان الله. إذًا هؤلاء الان الذين افتخروا بقواهم واطمئنوا لدنياهم حتى أنهم ظنوا أنه ما في أحد أعظم منه

وهنا نلحظ أنه هذا هو جواب القسم عند كثير من المفسرين. يعني {وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ} كثير من المفسرين قالوا هذا جواب القسم؛ فالله

يقسم بهذه الأزمنة الفاضلة على أنه سيعذب الظالمين وعلى أنه سيبعث الظالمين فيحاسبهم.

وهناك من قال أن جواب القسم في نفس القسم.

عرفنا كيف المؤمن يغتنم الأزمنة في فعل الطاعات، الآن نريد أن نعرف في مقابل هذا الفريق الثاني الذي اطمئن للدنيا و أصبح الزمان بالنسبة له مجرد تكثير للأسباب فيعتمد عليها.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} ثم {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ} ثم {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} يعني عاد وثمود وفرعون. وهؤلاء الثلاثة اجتمعوا في الظلم والجبروت وهؤلاء الثلاثة كل منهم اعتمد على شيء غير أن يعتمد على الله، ما اعتمد على الله اعتمد على شيء من الأسباب، فانظروا مع عاد اعتمدوا على ذات العماد، مع ثمود جابوا الصخرة بالواد، مع فرعون ذي الأوتاد.

وهذا إشارة إلى أنهم مكنّهم الله فما جعلوا هذا التمكّن سببا لإيمانهم لتقواهم لاندفاعهم، مثل ما كان سليمان عليه السلام تمكنّه من كل ذاك التمكن في الملك لأجل أن يصل إلى نشر دين الله، وإنما استعملوا هذا المُلك من أجل الوصول إلى الدنيا.

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ: يعني ذات البنيان الشاهق، وقيل إنها قبيلة كان طولهم عظيما وأجسامهم عظيمة وكانوا يرفعون الصخر بأيديهم، وكانوا يحاربون بأنهم يأخذون الصخر ويلقونه على أعدائهم، فذات العماد هذه تدل على قوّتهم، أو ذات العماد تدل على أنهم يتنقلون من مكان إلى مكان ومن قوتهم

يأتون بأعمدة ويبنون أي بنيان يريدونه، وكانوا يتنقلون في الديار في كل البلاد كيفما أرادوا.

ولذلك قال الله عز وجل: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} يعني قبيلة لم يخلق مثلها في البلاد، ولذلك هؤلاء عادة يعني كما قال الله عز وجل في سورة يونس {وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} [يونس:٢٤] يظنون أنهم وصلوا إلى قمة التمكّن.

عرفنا أن هؤلاء رأوا نفسهم أنهم في قمة التمكن وأنهم أقوى الناس وبطشا..

مثلهم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، هم قوم صالح يعني قطّعوا صخر الجبال واتخذوا منها بيوتا، ونلحظ أنهم كما قال الله عز وجل في سورة الحجر: {كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}[الحجر:٨٢]. لماذا أخذوا الجبال؟ مساكين كيف يفكرون! قالوا ما دام ان عاد أُهْلكت بريح صرصر عاتية نحن ندخل في الجبال ونختبئ فيها لكي لا يأتينا هذا الهلاك! كذا تصوروا، قطّعوا الصخر في الأودية وجابوا الصحراء وبنوا في هذا آمنين يعني كما تبين، إذا عاد أهلكوا بالريح إذا نحن الصخر سيحفظنا من الريح، مساكين أولئك القوم الذين تصوروا أنهم بأسباب الدنيا يدفعون نوائب الدهر ويدفعون ما أراد الله من إهلاكهم!

يقول عز وجل: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر:٢].

الشاهد أن هذه كانت ثمود الذين جابوا الصخرة بالواد.

ثم نأتي لفرعون ذي الاوتاد، أيضا هذا اعتمد اعتمادا تاما على أسبابه. ذي الأوتاد أي الجنود الذين يشدون له أمره. أو الأوتاد التي كان يعذب بها الناس. ويرسخ فيها بطشه وسلطانه، فهؤلاء كلهم عاد وثمود وفرعون قال الله عز وجل عنهم: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ} يعني تجاوزوا ما كان واجبا.

{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} يعني أنزل بهم عذابا وأحل بهم نقمة، كل هذا العذاب الذي في الدنيا وقع عليهم بمثابة فقط صوت واحد، لكن ينتظرهم في الآخرة العذاب العظيم!

سنقارن بين أول خمسة آيات وبين هذه الآيات:

قوم اغتنموا الساعات ليتقربون إلى رب العالمين ويجعلون الحياة خالصة لوجه الله، وهنا لازم نؤكد أنها تكون خالصة لوجه الله لأن بعض الناس يركبون مركب الدين لأجل الدنيا أيضا، لكن هؤلاء تجردوا في الأعمال وطلبوا وجه الله، -نسأل الله أن يقبلنا جميعا- مقابل أولئك القوم قضوا الأيام والليالي لأجل دنياهم. ماذا كانت النتيجة؟

أن ربنا صبّ عليهم {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

مسكين هذا الذي يظن أنه يستطيع أن يهرب! أبدا وإنما الله عز وجل هو الرقيب الحفيظ على أعمالهم وسيجازيهم على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منهم أحد بحال، ما ينجو إلا أهل الإيمان الذين اغتنموا الساعات.

لماذا الناس ما يكون انتفاعهم بأوقاتهم وانتفاعهم بساعاتهم لرضا ربهم ويجعلون الله هو معاذهم ملاذهم. لماذا هذا الشتات؟ لماذا الاعتماد على الأسباب والطمأنينة لها وجعل الدنيا مجرد مكان ليجمع ويجمع الانسان وليطغى ولا يغتنم الأوقات ليصل إلى الطاعات؟!

الجواب: غفلة الإنسان، غفلة في حال غناه وفقره {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} لا حول ولا قوة الا بالله! كل المقاييس عند الخلق هل

أعطوا في الدنيا أو ما يعطوا في الدنيا؟ وهذا من ضِيق أفق الإنسان فإنه يستدل على رضا الرحمن بعطايا الدنيا وهذا باطل.

و قد بين رب العالمين في سورة المؤمنون بيانا واضحا: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}، ثم بيّن عز وجل أيضا في هذه السورة أن الذي يدلك على رحمة رب العالمين وعلى رضاه ليس العطاء من المال ليس العطاء من الدنيا وإنما الحقيقة أن الذي يدلك على ذلك هو ما يفتح الله عز وجل لك من أبواب الطاعة لذلك لما قال عز وجل: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}

نعم من نسارع لهم في الخيرات هؤلاء مستدرجين بل لا يشعرون، لكن الذين هم مفضّلين ولهم مكانة هم الذين يسارعون في الخيرات، هم الذين يُفتح باب الطاعات وهم لها سابقون.

ولذلك الإنسان في غفلة، في حال الغنى وحال الفقر. وهكذا اليوم في غفلة وهو مشهور أو وهو يطلب الشهرة أو هو مغفول عنه -خامل الذكر- الذي هو مشهور سائل نفسه أنه ربنا يحبه. خامل الذكر يرى نفسه أنه لا يحبه، وهي نفس قضية الغنى والفقر بالمال، يعني يضع مقياس باطل.

في سورة الفجر. {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}.

في سورة المؤمنون كان واضح الحِسبة كيف تكون، فالله عز وجل قال {كلا} فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه، وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بخُلق الصبر على الكفاف، ففي كلٍّ ابتلاء وامتحان {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}.

لكن كما قال عز وجل في المعارج: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} سبحان الله. ابتلاء عظيم يجعل الانسان يُضيع وقته. ولذلك أتى قوله تعالى: {كلا}. عرفنا {كلا} إبطالا لهذا الذي يقولونه، لكن أنتم مقاييسكم دنيوية. الذي يقول هذا الكلام مقاييسه دنيوية. ولذلك تجدين أنهم {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} هذه حالتهم، الله يبين لهم أطماعهم، هم الذين لا يكرمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين ويأكلون الميراث. والمال هو الذي مالئ قلوبهم. هم هؤلاء الذين كان نموذجهم عاد وثمود وفرعون.

في مقابل هذا ننظر لأهل الايمان إذا طعم طعاما قال الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقني إياه من غير حول مني ولا قوة، فالمؤمن يعترف أن كل شيء بفضل الله ولذلك لما دخل المؤمن لصاحب الجنتين وقال له {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} هذا ليس للحسد. هو دخل جنته، لكن هذا الذي حصل لي من مال يعني حصل لصاحب الجنتين من مال إنما هو بمشيئة الله وبقوة الله. من غير حول مني ولا قوة. لأن هو قال {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}.

المهم إذا المؤمن ينتفع بأيامه ولياليه ويستثمرها لطاعة الله، وما يطمئن إلا بالله ولا يسأل إلا الله ولا يرجو إلا الله، ويعلم أن الله هو الذي يملك الأسباب، ويسأل الله النتائج فيعطيه الله الأسباب وهو ينتفع بالأسباب، يا رب اشفي مرضانا، فالله يعطيه السبب لشفاء مريضه. يا رب عافي مبتلانا، فالله يعطيه السبب لمعافاة المبتلى. فلما يأتيه السبب يأخذه ويسير في طريقه، فهو مغتنم لأيامه ولياليه، الشكوى لله.

ولذلك اسمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول لما خاف صاحبه ما طمأنه بأي شيء ما قال لا تخاف أنا معك. قال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما،

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

فالذي يطغى بالأسباب يطغى بالمال يطغى بدنياه، سيأتيه سوط عذاب، في مقابل أن الذي يغتنم أيامه ولياليه في طاعة الله، و يجعل كل عطاء سبب للقربى إلى الله فسترون كيف سيكرمه الله.

الانتقالة الثالثة:

تأتي الانتقالة الثالثة في السورة ويقول رب العالمين بعد {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}، {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} يعني في ذاك اليوم سيتبين {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} فلا تظنن أن تأخير نزول العذاب على الطغاة وعلى الظالمين وعلى المستهزئين بالدين. لا تظننه يدل على أن هذا أمر لا ينزل. وإنما رب العالمين يقول: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} نعم. هنا مجيء رب العالمين في هذا الموقف العظيم، مجيئه سبحانه وتعالى مجيئا يليق بجلاله.

{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} فقط جاءت جهنم. لم يحاسب بعد. لم يخاطب بعد، لم يعرض عليه شيء بعد. مباشرة قال الإنسان يقول عز وجل: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} ذهب الوقت المناسب أضعت الوقت. فكن حذرا أن تضيع الوقت، كن حذرا أن تكون غافلا {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} مباشرة {يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} نعم هذه هي الحياة الحقيقية، الحياة الأخروية هي الحياة الحقيقية، علم أن إرم ذات العماد والذين جابوا الصخر بالواد وذي الأوتاد كلها ليس لها قيمة، فيأتي الندم {يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}! يا ليتني فعلت أفعال في هذه الأوقات التي مرت علي وكانت أوقات فاضلات وما غفلت عنها.

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} وهذه الآية فيها قراءات ملخصها لو أخذنا بالقراءة المشهورة عند حفص: أن الله لا يعذب أحد مثل تعذيب هذا الذي أضاع الفرص، وأخذ ما يُسِّر له في الدنيا لأجل الطغيان، ولذلك يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء، الناس يطؤونهم! هم مثل النمل ويطؤونهم مقابل ما كانوا يفعلون!

هذا واضح بالنسبة لهؤلاء الذين ضيعوا. لما نأتي للذي اغتنم الفجر واغتنم الليالي العشر واغتنم الشفع والوتر واغتنم الليل وهو يسري ماذا يقال له؟

يقال له: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} يا من اطمئننت بالله وكنت واثقة في وعد الله وعظّمت الله وكبرت الله وانتفعت بصلاة الفجر وبالليالي العشْر وبأنواع الطاعات من الشفع والوتر وأقمت الليل ولم تطمئني بذات العماد ولا بذي الأوتاد ولا الصخر بالواد وإنما اطمأننتِ بالله وبوعوده.

أنت أيها أيتها النفس التي قاومت هذا الضغط الحاصل من كل شيء حولك من الخلق ومن الشيطان ومن النفس فما استفزتك هذه المخاوف و لا أحزنك هذا، بل كنت تغتنمين الأوقات وتطمئنين بالله.

{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} نعم ارجعي إلى ربك العظيم الكريم الذي أعانك، فأنت في نهاية الأمر معترفة بأن الله هو الذي أعان، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} الصالحين {وَادْخُلِي جَنَّتِي}.

فسبحان ربنا العظيم سبحان ربنا العظيم كيف بيّن لنا في هذه السورة الكريمة الأزمنة الشريفة الذي على المؤمن أن يستغلها بالطاعات، الأزمنة التي تسكب في النفس الطمأنينة والهدوء فينزع الإنسان نفسه من هذا الجري وراء الدنيا وطلب علو، من هذا الخطر العظيم الذي يحيط بنا جميعا، هذا الخطر الذي جعله يطغى، هذا الخطر الذي جعله ما يقيس الفلاح والصلاح إلا بالدنيا.

هذه أزمنة عظيمة انتفع بها لأنه سيأتي يوم تدكّ الأرض دكا. ويأتي رب العالمين على ما يليق بجلاله والمَلَك صفا صفا، فنرجو أن نكون في ذاك اليوم من الناجين أصحاب النفس المطمئنة اللهم آمين.

نسأل الله أن يرزقنا حسن الختام، وأن يرزقنا الانتفاع بأوقاتنا، وأن يجعل هذا الزمان خير زمان مر علينا تُغفر لنا فيه الزلات وترتفع لنا فيه الدرجات وتَعظم لنا الحسنات اللهم آمين.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.